

متى عرف الإنسان تدوين الوثائق؟ ومتى اهتم بحفظها؟

أولاً: الإنسان وتدوين الوثائق

متى عرف الإنسان تدوين الوثائق؟

تكشف دراسة تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور عن أن تدوين الوثائق ارتبط بتحولات ثقافية وحضارية في المجتمعات الإنسانية أقدم بكثير من ظهور الأرشيفات القومية الحديثة، تحولات تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد على الأرجح، فقد كان تدوين الوثائق، بشكل عام، وليد انتقال المجتمعات الإنسانية من البساطة إلى التركيب.

لقد ارتبط تدوين الوثائق في الحضارات الإنسانية المختلفة بعدة ظواهر استحدثها الإنسان في مسيرته الطويلة، منها ظهور الكتابة أو ما يمكن أن نسميه الذاكرة الخارجية للإنسان، الذاكرة خارج العقل أو خارج الذهن، والتي سمحت له بتدوين خبراته، وتناقلها عبر المكان والزمان. ومع هذه البدايات المبكرة للكتابة التصويرية عرفت الحضارات الإنسانية الأولى، فكرة تسجيل المعاملات في شكل وثائق.¹

كما ارتبط التدوين من ناحية أخرى بظهور السلطة في المجتمعات الإنسانية، بل نستطيع القول أنه كان آلية من آليات تشكل السلطة؛ فالوثيقة والأرشيف هي تعبيرات عن السلطة وتجليات من تجلياتها؛ فالوثيقة منتج من منتجات السلطة؛ سلطة الدولة أو سلطة المجتمع أو سلطة الأعراف والعادات والتقاليد، كما أنها أيضاً وسيلة من وسائل إنتاج السلطة؛ فالوثيقة تضيف لقوة المؤسسة المنتجة لها، وتسهم في التمكين لها من خلال الهيمنة القانونية على من صدرت بحقهم الوثيقة، والأرشيف تراكم مقصود للوثائق؛ مقصود من السلطة، يعبر عن رؤية السلطة لما ينبغي حفظه وإتاحته للكافة من الوثائق، وما ينبغي التخلص منه أو حجب من تلك الوثائق.²

وقد ظهرت في منطقة الشرق الأدنى القديم أو في المنطقة العربية . بمصطلحنا الآن . بعض من أقدم الحضارات التي عرفتها الإنسانية، وقد قدمت تلك الحضارات إنجازات حضارية مهمة عبر التاريخ، ومن أهم المنجزات التي حققتها تلك الحضارات الكبرى في وادي النيل وفي بلاد الرافدين وآسيا الصغرى: استنبات البذور، أي الزراعة، وإنشاء الدولة، وابتكار الكتابة والأرقام؛ وبفضل هذا الابتكار الأخير، الكتابة والأرقام، امتلكت أغلب شعوب المنطقة منذ عصور بعيدة القدرة على التوثيق وعلى تسجيل التصرفات والتعاملات والأنشطة في مختلف مجالات الحياة؛³ فقبل ابتكار الكتابة كان الإنسان يعبر عن أفكاره وأنشطته برسوم على جدران الكهوف أو على أدوات الحياة اليومية.

وفي أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد على الأرجح توصل الإنسان إلى ابتكار الكتابات التصويرية الأولى في مكان واحد وانتقلت منه إلى أماكن أخرى، أو في عدة أماكن في أوقات متقاربة بشكل منفصل، ثم تطورت الكتابة إلى أن وصلت إلى الأبجديات التي يعبر فيها رمز مكتوب عن صوت منطوق.⁴

وقد اكتشفت بعثة الآثار الألمانية في منتصف تسعينيات القرن الماضي مقبرة بأبيدوس بمحافظة سوهاج، ترجع إلى عام 3200 ق.م. أي إلى عصر ما قبل الأسرات، تخص شخص يُدعى أو . ج، وقد غير هذا الكشف الأثري الكثير من المفاهيم التي ظلت سائدة حول نشأة الكتابة في المنطقة؛⁵ وفي المقبرة تم اكتشاف قطع من العاج على شكل بطاقات عليها كتابات

تصويرية، وهي بطاقات صغيرة الحجم لا تتعدى أبعاد القطعة الواحدة منها 1.5 × 2 سم. لكنها تكشف عن معرفة المصري القديم في هذه المرحلة المبكرة لشكل من أشكال الكتابة التصويرية،⁶ كما تحوي المقبرة أواني فخارية عليها كتابات تشير إلى أنها تخص الملك العقرب على الأرجح، وهذه الكتابات سواء على قطع العاج أو على الأواني الفخارية هي أقدم ما تم اكتشافه من كتابات تصويرية حتى الآن.⁷

ومن فترة زمنية لا تبعد كثيرا عن أواخر الألف الرابع وصلتنا كذلك أقدم الكتابات التصويرية السومرية من العراق القديم، والتي ترجع إلى زمن قريب من الكتابات التصويرية المصرية القديمة، أي إلى نهايات الألف الرابع وبدايات الألف الثالثة قبل الميلاد، والتي كانت تعتبر الأقدم على الإطلاق قبل كشف مقبرة أبيدوس التي غيرت المفاهيم المستقرة حول نشأة الكتابة.⁸

وإذا كان ظهور الوثائق مرتبط بمعرفة الإنسان الكتابة فقد ارتبط كذلك بتطور المعاملات بين الأفراد والمجتمعات، وبدأ بتسجيل الحقوق بين الأفراد وبين الأفراد والدولة وبين الدول، وكانت الوثائق الأولى في أغلبها صكوك ملكية وضمائم التزامات، كانت البداية في المجتمعات الزراعية الأولى.⁹

لذلك فقد كان من الطبيعي أن يخلف الناس في تلك البقعة من العالم التي ظهرت فيها الكتابة في الألف الرابعة قبل الميلاد أقدم الوثائق على الإطلاق وأكثرها عددًا بل وأغناها من حيث تنوع موضوعاتها، وذلك في سياق الأنشطة والممارسات اليومية الطبيعية للأفراد وللمجتمعات والدول على حد سواء، وقد حررت تلك الوثائق بلغات وخطوط متعددة من اللغات والخطوط التي استخدمتها شعوب المنطقة.

• **إذا كان تدوين الوثائق يرجع إلى بدايات معرفة الإنسان بالكتابة، فهل عرف الإنسان حفظ الوثائق مع معرفته للتدوين؟**

ثانيا: المجتمعات الإنسانية وحفظ الوثائق:

لا توجد لدينا أدلة أثرية قطعية على ظهور نظم لحفظ الوثائق في فترة مبكرة ترجع إلى الألف الرابع الذي ظهرت فيه الكتابة، لكن إذا كان التوثيق قد ظهر مع ظهور الكتابة، بل ربما يكون تدوين المعاملات دافعا من دوافع ابتكار الإنسان للكتابة، خاصة في المجتمعات التي ظهرت فيها التكوينات البدائية للدولة على ضفاف الأنهار، تلك الدول التي ارتبطت بالزراعة وتنظيم الري، مثل مصر وبلاد الرافدين والصين والهند، فلا بد أن تلك المجتمعات عرفت أشكالاً متنوعة لحفظ الوثائق لفترات من الزمن، فمعظم الدراسات التي تناولت طبيعة السلطة في المجتمعات النهرية القديمة ربطت بين السلطة وتوافر تسجيلات منظمة لأعداد السكان وما يوردونه للسلطة من محاصيل، الأمر الذي يعني ضرورة وجود أماكن لحفظ بيانات الدولة أو سجلاتها ووثائقها.¹⁰

حفظ الوثائق في مصر القديمة

رغم أن الكشوف الأثرية في مصر لم تقدم دليلاً مادياً على وجود مؤسسات لحفظ الوثائق في مصر منذ اللحظة التي بدأ فيها التدوين، أي الألف الرابع قبل الميلاد، إلا أن الآثار المصرية القديمة تكشف في نفس الوقت عن الاهتمام بتسجيل المحاصيل والماشية والجبايات التي تجبها الدولة من الفلاحين والرعاة، كما تشير تلك الآثار إلى وجود أماكن لحفظ الوثائق منذ عهد الدولة القديمة، بمعنى آخر فإننا لم نكشف بعد عن مستودعات للوثائق تعود إلى بداية عصر الأسرات، لكننا وجدنا نصوصاً تشير إلى وجود مثل هذه المؤسسات في القصور الملكية والمعابد؛ ومن هذه المؤسسات التي تشير إليها الكشوف الأثرية بيت التحريات الملكية المكلف بتوثيق الروابط بين الإدارات الحكومية، وبيت العقود المختومة الذي يقوم بتوثيق العقود، وبيت المكاتب الذي ينسخ العقود التي يحررها ويوثقها بيت العقود المختوم، وبيت الضرائب ويحفظ الوثائق المتعلقة بتقدير الضرائب ومساحة الأراضي،¹¹ كذلك عرفت الحضارة المصرية منذ أواخر عصر الدولة القديمة على الأقل أساليب محددة لحفظ الوثائق وإعدامها.¹²

لقد وصلتنا وثائق متفرقة للمعاملات تعود إلى مراحل متفرقة من مصر من مراحل مختلفة من تاريخها القديم، تم اكتشافها بصورة متفرقة ولا تشكل مجموعات أرشيفية متكاملة.¹³ وإن كان بعضها يعكس تراكم مجموعات من الوثائق الإدارية المرتبطة بجهة "إدارية" محددة، مثل تلك المجموعة المحررة بالهيرايقية والتي تُعرف ببرديات "أبو صير"، وتتعلق بالعمل الإداري للمجمع الجنائزي للملك نفر إي ركا رع من ملوك الأسرة الخامسة في عصر الدولة القديمة.¹⁴

ومن عصر الدولة الوسطى هناك مجموعة من النصوص القانونية التي ترجع إلى تلك المرحلة التاريخية التي تأسست فيها رؤية قانونية جديدة في الحضارة المصرية بعد عصر الانتقال الأول الذي أعقب الثورة الاجتماعية التي أنهت الدولة القديمة، كذلك وصلتنا من هذا العصر مجموعة كبيرة من الوثائق الإدارية تتضمن سجلات إدارية وعقود ومكاتب تم اكتشافها في

منطقة اللاهون بين بني سويف والفيوم، وكذلك المجموعات المعروفة بخطابات حكا نخت ورسائل سمنا، وهي أيضا وثائق مدونة بالهيراطيقية على أوراق البردي.¹⁵

كذلك وصلتنا بعد الوثائق من عصر الرعامسة زمن الدولة الحديثة مثل بردية فلبور التي تتضمن معلومات عن مساحة الأراضي.¹⁶

ووصلتنا أعداد أكبر من الوثائق بالخط الديموطيقي من العصر المتأخر، تتضمن تصرفات قانونية مختلفة ومتنوعة تعكس صورة الحياة الاجتماعية في مصر في ذلك العصر.

لكن أقدم أرشيف متكامل تم اكتشافه في مصر يرجع إلى عصر أمحتب الرابع (إخناتون)، والأرشيف عبارة عن مجموعة من الرسائل الواردة إلى بلاط ملك مصر من حكام غرب آسيا الذين خضعوا لحكم مصر منذ عصر تشييد الإمبراطورية في زمن تحتمس الثالث، وهي وثائق مدونة على ألواح طينية بالخط المسماري، مثل غيرها من وثائق سوريا وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى في تلك الفترة. وتتضمن الوثائق معلومات مهمة عن علاقة مصر بأمراء سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين في هذه المرحلة المهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، وتعرف هذه المجموعة من الألواح الطينية باسم أرشيف تل العمارنة نسبة إلى مدينة تل العمارنة بمحافظة المنيا أو أخيت آتون، عاصمة حكم إخناتون التي شيدها بعيدا عن العاصمة القديمة في الجنوب، واست (الأقصر الآن) مقر عبادة آمون.¹⁷

بماذا يمكن أن نفسر وجود هذه المجموعة الأرشيفية دون غيرها من المجموعات؟

ربما يكون التفسير التاريخي لبقاء هذه المجموعة دون غيرها من المجموعات الأرشيفية في مصر القديمة يرجع من ناحية لمبررات حفظ الوثائق في ذلك العصر، ومن ناحية أخرى للطريقة التي انتهى بها عصر إخناتون، فقد كان الهدف من حفظ الوثائق في ذلك العصر مرتبطا بقيمتها الإثباتية فقط، بمعنى أن الوثائق يتم التخلص منها بمجرد إصدار وثائق جديدة، وبالتالي لم تصل إلينا الوثائق كمجموعات أرشيفية، لكن حالة تل العمارنة مختلفة، فقد انتهى عصر إخناتون بثورة قضت على نظام حكمه وعلى محاولته لحصار التعددية في المجتمع المصري، وسقطت عاصمته أخيتاتون (تل العمارنة) وهجرها الناس، وعاد مركز الحكم إلى واست (الأقصر)، ومن ثم كان السقوط المفاجئ للنظام وعاصمته سببا في الاحتفاظ بتلك المجموعة الأرشيفية.

وقد تطورت نظم الحفظ الأرشيفي في مصر في ظل حكم البطالمة وتأثرت بالنظم التي سادت في الحضارة اليونانية القديمة،¹⁸ كما أدخلت عليها تعديلات متعددة في زمن الاحتلال الروماني والبيزنطي من أجل توفير الحماية لوثائق الدولة خاصة تلك المتعلقة بالضرائب والشؤون المالية وإدارة أمور الولاية، وأصبح هناك قسمان رئيسيان للأرشيف، أرشيف الوثائق الرسمية للدولة، أو الأرشيف العام للولاية، ومكتب وثائق الملكية الذي يحفظ الوثائق الخاصة بالملكيات العقارية للأفراد.¹⁹

حفظ الوثائق في حضارات غرب آسيا القديمة

أما في سوريا والعراق وآسيا الصغرى حيث ظهرت حضارات كثيرة اعتمدت على التدوين كأساس للإبقاء على مظاهرها، ومن ثم فقد أنتجت تلك الحضارات أعدادًا كبيرة من الوثائق المتنوعة في موضوعاتها، والتي تغطي مختلف جوانب الحياة، منها وثائق حكومية ومنها وثائق للمعاملات اليومية بين الأفراد، وقد حفظ النوع الأول في أرشيفات ملحقة بالقصور الملكية والمعابد.²⁰

واستخدمت هذه الحضارات مواد مختلفة لكتابة الوثائق، أغلبها من المواد الصلبة؛ فإذا كان المصريون القدماء قد استخدموا البردي كمادة أساسية لتدوين وثائقهم عليها، إلى جانب الوثائق التي حفرها على جدران المعابد تخليداً لها، فإن سكان غرب آسيا القدماء بحضارتهم المتعاقبة قد استخدموا عدد من المواد مثل: الألواح الخشبية التي أتى بها السومريون في الألف الرابع قبل الميلاد، ثم الألواح الطينية التي شاعت في كل إقليم غرب آسيا، إلى جانب ألواح الشمع التي استخدمها العامة، وقطع العاج التي استخدمت في حدود ضيقة، ثم الألواح الحجرية، هذا بالطبع إلى جانب تسجيل نصوص الوثائق على جدران المباني العامة والنصب التذكارية. لكن تظل الألواح الطينية هي الأكثر انتشاراً بين مواد الكتابة لدى سكان مناطق غرب آسيا التي تشمل سوريا والعراق وآسيا الصغرى، حتى أن البعض وصف حضارات تلك المناطق بحضارات الألواح الطينية، نسبة إلى وثائقهم المدونة على ذلك الوسيط.²¹

وقد ظهرت في هذه المناطق خاصة في جنوب العراق زمن السومريين كتابات تصويرية قديمة ترجع إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، ثم تطورت فيما بعد إلى ما عرف بالكتابة المسمارية المتقدمة التي سادت في الإقليم بالكامل، وكتبت بها كل وثائق تلك الحضارات.²²

وقد قادت الكشوف الأثرية إلى العثور على عدد من الأرشيفات في سوريا والعراق وآسيا الصغرى، كانت في معظمها تجمع بين وظائف الأرشيف الذي يضم الوثائق والمكتبة التي تضم الإنتاج الفكري، وهي أرشيفات ملحقة بالقصور الملكية أو بالمعابد، وتكشف عن نظم متطورة لحفظ الوثائق في هذه الحضارات القديمة، هذا بخلاف ما تم كشفه من وثائق متفرقة ومتناثرة ضمن عمليات التنقيب عن الآثار.²³

أرشيف إبلا الملكي: من أهم هذه الأرشيفات التي تم اكتشافها وأقدمها أرشيف مملكة إبلا في شمال غرب سوريا، الملحق بالقصر الملكي، والذي اكتشفته بعثة الآثار الإيطالية عامي 1974 و1975.²⁴

ويبدو من الكشوف الأثرية في إبلا أن أرشيف القصر كان أرشيفا منظماً إلى حد بعيد، وكانت هناك قواعد لحفظ الوثائق وترتيبها وإتاحتها يقوم على تنفيذها مجموعة من الموظفين العاملين بالأرشيف، ويضم أرشيف إبلا كمية كبيرة من الوثائق المدونة بالخط المسماري على ألواح طينية، بلغة جديدة لم تكن معروفة سابقاً وهي لغة إبلا التي انتشرت قبل حوالي خمسة آلاف عام. تغطي موضوعات الوثائق جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والسياسية

والقانونية في سوريا في هذه المرحلة المبكرة، وتعود المحفوظات الملكية في مدينة إبلا إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وتبدو آثار حريق كبير في بقايا قصر إبلا الملكي العائد للألف الثالث ق.م.، ويبدو أن السبب في هذا الحريق، الملك الأكادي نارام سين الذي هاجم مملكة إبلا عندما أصبح نفوذها يهدد الدولة الأكادية، وقبل الكشف عن أرشيف إبلا كانت معرفتنا بها من خلال النصوص الأكادية والبابلية والأشورية القديمة.²⁵

أرشيفات العراق القديمة: كما اكتشف الأثريون على مدى القرنين الماضيين كميات من الوثائق في مناطق مختلفة من العراق أهمها أور وابل ونينوى، ويرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل عام 2000 ق.م.، هذا بالإضافة إلى ما تم اكتشافه من أرشيفات كاملة في القصور الملكية والمعابد.²⁶

وتؤكد هذه الكشوف الأثرية على أن حضارات العراق القديمة لم تعرف كتابة الوثائق فقط بل تؤكد كذلك وجود نظم متطورة للحفاظ الأرشيفي في الحضارات التي تعاقبت على بلاد الرافدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد.²⁷ كما كانت هناك قواعد للفرز والإعدام بالنسبة للألواح الطينية في حضارات بلاد الرافدين الأمر الذي يؤكد على وجود ضوابط محددة للعمل الأرشيفي في تلك الحضارات.²⁸

وأهم ما يمكن أن نستخلصه من الدراسات المتعددة التي أجريت على الأرشيفات القديمة في العراق، إن الوثائق المرقومة على الألواح الطينية كانت تحفظ في صناديق من الطين داخل الأرشيف بأسلوب منظم يتيح سهولة استرجاعها في المستقبل؛ فكانت هناك قوائم مثبتة على الصناديق التي تحفظ فيها الوثائق، توضح عدد الوثائق ونوعها وملخص لمضمونها وتاريخها. كما كانت الصناديق ترتب على أساس موضوعي وزمني؛²⁹ كذلك أكدت الكشوف الأثرية أن الأرشيف كان مقسما إلى أقسام ترتبط بالوحدات الإدارية للدولة ومناطقها الجغرافية، وإن قسما كبيرا من الوثائق المحفوظة به تتعلق بنظم الضرائب.³⁰

أرشيفات آسيا الصغرى: ومن أرشيفات الحضارات التي تستخدم الألواح الطينية، تلك التي تنتمي للحضارات التي قامت في آسيا الصغرى منذ فترات تاريخية بعيدة، ومن أهم الأرشيفات التي تم الكشف عنها في آسيا الصغرى أرشيف بوغاز كوي، وقد تم اكتشاف الأرشيف في أطلال القصر الملكي في المدينة التي تقع عند منحى نهر هاليس بوسط آسيا الصغرى وكانت قديما موقعا لمدينة خاتوشا عاصمة الحيثيين، ويضم الأرشيف مجموعة كبيرة من الوثائق المدونة على الألواح الطينية، يحوي هذا الأرشيف نسخة من نص معاهدة السلام بين رمسيس الثاني والملك الحيثي خاتوشيلي الثالث، مدون على مجموعة من الألواح الطينية، ذلك النص الذي دونه رمسيس الثاني على جدران معبد الكرنك.³¹

أرشيفات الإغريق والرومان

عرفت الحضارة اليونانية القوانين المكتوبة، كما عرفت الوثائق الأرشيفية بأشكالها المختلفة من معاهدات وسجلات تضم محاضر الجمعيات الشعبية وأوراق الدولة وسجلات المواليد

وعقود الملكية وغيرها من الوثائق، وكانت هناك مؤسسات لحفظ الوثائق منذ القرن الخامس قبل الميلاد.³²

وقد دفع تطور المؤسسات الأرشيفية في الحضارة اليونانية القديمة عالم الأرشيف شلنبرج إلى القول بأن نشأة مؤسسات حفظ الوثائق أو الأرشيفيات في العالم يعود إلى الحضارة اليونانية،³³ لكن حقيقة الأمر أنه مهما كان فضل الحضارة اليونانية على الأرشيف بما في ذلك منح هذه المؤسسة اسمها،³⁴ فإن الكشوف الأثرية تؤكد معرفة شعوب جنوب وشرق المتوسط للأرشيفات قبل اليونان القدماء بمئات السنين.³⁵

بدأت الحضارة اليونانية القديمة في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا، ورغم اتصال اليونان القدماء بحضارات الشرق القديمة إلا أنهم اتخذوا نظام سياسيا مغايرا تماما يقوم على دولة المدينة التي تطورت لتقيم أقدم ديمقراطية عرفها البشر، وقد انعكست طبيعة النظام السياسي في المدن اليونانية على عملية إصدار الوثائق وحفظها.

وتتعدد النظريات حول بدء المؤسسات الأرشيفية في اليونان فهناك احتمالات غير مؤكدة لوجود أرشيف في معبد دلفي بإسبراطة في مرحلة مبكرة من تاريخها،³⁶ لكن الأدلة الأثرية المؤكدة تنقلنا إلى أثينا حيث ظهر أرشيف الدولة المركزي في معبد الميثرون في أثينا في مرحلة متأخرة نسبيا من تاريخها، في القرن الخامس قبل الميلاد، وارتبط بالتحول لنظام الديمقراطية الراديكالية، التي أعطت للمواطنين القدرة على المشاركة في اتخاذ القرار والتأثير فيه، وكانت وظيفة الأرشيف المركزي عند تأسيسه في البداية حفظ وثائق مجلس الشيوخ ومجلس الشعب، ثم ضم في فترة لاحقة القوانين والمعاهدات الكبرى مع دول المدن اليونانية، أما الموظفون الرسميون فكانوا يحتفظون بوثائقهم بحوزتهم، كذلك كان الموظفون الماليون يحتفظون بوثائق الإدارة المالية بحوزتهم لحين انتهاء الغرض من إنشائها، والكثير من الوثائق كان يتم إعدامها بعد انتهاء وظيفتها، وكانت بعض الوثائق المحفوظة في الأكروبوليس عبارة عن قوائم بأسماء المدينين للدولة يمحي الاسم منها بعد سداد الدين، وأخرى للخونة، وثالثة للمتبرعين؛³⁷ وبمرور الوقت أصبح الأرشيف الرسمي للدولة في المدن اليونانية القديمة يحفظ وثائق الأفراد خصوصا وثائق الأملاك، وكان حفظ الوثائق الخاصة في الأرشيف يكسبها صفة رسمية.³⁸

كما كانت الوثائق المحفوظة في الأرشيف تستخدم في أثينا القديمة في العصر الديمقراطي في الصراع بين الخصوم السياسيين؛³⁹ كما دفعت أهمية الأرشيف في العالم اليوناني القديم أرسطو لأن يجعل من الأرشيف مؤسسة رئيسية ضمن مؤسسات المدينة المثالية في كتابه السياسة.⁴⁰

ومن اللافت للنظر في نظم التوثيق عند اليونان القدماء أن نوع المادة التي تكتب عليها الوثائق كان يرتبط بقيمة الوثيقة، فالوثائق المنحوتة على الأحجار كانت تضم النصوص القانونية ذات القيمة؛⁴¹ وكانت الوثائق المعروضة حول جدران الأكروبوليس هي الأهم، بل هي الأرشيف الحقيقي للأثينيين،⁴² ولا شك في أن الوثائق الحجرية المعروضة للجمهور ترتبط بالديمقراطية

الأثينية وبالنظام القانوني المتبع في أثينا، لذلك فأثينا تتفوق في حجم ما خلفته من وثائق على غيرها من المدن اليونانية التي سادتها نظم أوليجاركية.⁴³

أما روما فقد كان لها أرشيف مركزي كان مقره في البداية في معبد ستيرن، ثم نقل في سنة 78 ق.م. إلى القسم الشمالي الشرقي لمبنى الكابيتول، وكان يضم كل الوثائق المالية القديمة، ثم أودعت فيه الوثائق الإدارية والقانونية والسياسية.⁴⁴ وكانت الوثائق المهمة تحفظ في تلال الكابيتول، وكانت تتكون من مراسيم السناتو ومراسيم وقرارات صادرة باسم الشعب الروماني تتعلق بالأحلاف مع أطراف أجنبية، ومعاهدات وامتيازات لأفراد، والرواية التاريخية الشائعة ترجع تاريخ هذا الأرشيف إلى وقت تأسيس روما.⁴⁵

وفي العصر الإمبراطوري تأسست دار الوثائق القيصرية التي كانت تحفظ فيها كل الوثائق المتعلقة بملكية الأراضي، كما كان لكل مقاطعة أرشيفها الخاص بها، وكانت أرشيفات المقاطعات ملزمة بتسجيل ميلاد كل طفل روماني في سجلاتها؛⁴⁶ وعندما احترقت روما في زمن نيرون ضاعت في الحريق مجموعة من أجمل وأقدم سجلات الإمبراطورية، ويبدو أن الوثائق المدمرة بلغت ثلاثة آلاف لوح برونزي كانت معروضة على الناس في الهواء الطلق.⁴⁷

فقد كان من ضمن وظائف الوثائق في العالم اليوناني الروماني إعلام الكافة بمحتوها ومن هنا جاءت فكرة عرضها على الملأ، وهذه الأرشيفات المفتوحة لم تكن الأرشيفات الوحيدة في العالم الهلينستي القديم، بل كانت هناك أيضا أرشيفات بمعنى أماكن مغلقة للحفظ، تتعلق بأرشيفات بعض الموظفين أو بأعمال المدن. لكن الوثائق الأكثر قيمة من الناحية السياسية والقانونية هي تلك التي كانت تعرض على الجمهور في المدن اليونانية وفي روما، وكانت تعرض في الأجورا والأكروبوليس أو في الكابيتول والفورم، وتدون على مواد صلبة مثل ألواح البرونز أو الحجر أو الرخام.⁴⁸

وفي عهد الإمبراطور قنسطنطين الذي حاول تجديد شباب الإمبراطورية الرومانية بتقسيمها إلى قسمين كبيرين: شرقي وغربي، وجعل القسطنطينية التي قامت على بقايا بيزنطة القديمة قاعدة للقسم الشرقي من الإمبراطورية، تجددت المبادئ التي قام عليها الأرشيف الروماني القديم في القسطنطينية التي ظلت صامدة حافظة لتقاليد العالم الهلينستي الممتزجة بالديانة المسيحية حتى القرن الخامس عشر الميلادي، في الوقت الذي سقطت فيه روما تحت ضربات القبائل الجرمانية سنة 476م، اتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الإنسانية، ومرحلة جديدة في تاريخ الوثائق والأرشيف.

حفظ الوثائق في العصور الوسطى

في البداية لابد من تعريف المقصود بالعصور الوسطى هنا، حيث يختلف المؤرخون في تحديد بداية العصور الوسطى ونهايتها في تاريخ المنطقة العربية وفي تاريخ العالم عمومًا، بل يختلفون الآن أصلاً حول وجود المفهوم، ويمكن أن نقبل بتحديد فترة العصور الوسطى كتحديد إجرائي، بالفترة الممتدة منذ ظهور الإسلام حتى الغزو العثماني للمنطقة العربية،

مقابل تعريف العصور الوسطى الأوروبية بأنها الفترة من سقوط روما في أيدي الجرمان إلى سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين.

أثرت التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في العصور الوسطى على تدوين الوثائق وحفظها، وكان هناك فارق بين المسار الذي جرت عليه الأمور في المشرق العربي الإسلامي والمسار الذي جرت عليه الأمور في أوروبا.

وتعكس ممارسات حفظ الوثائق في أوروبا التغير الجذري الذي حدث بين العالمين القديم والوسيط، بين عالم الإمبراطورية الرومانية وعالم العصور الوسطى. ويرتبط الأمر بالفارق الجوهرى بين ثقافتين أوروبيتين: الثقافة اليونانية الرومانية البحر متوسطية والثقافة الجرمانية السلافية شمال جبال الألب. وقد عبرت تلك التغييرات عن نفسها بشكل أساسي في فقدان معرفة الكتابة لأهميتها كأداة للإدارة، وبالتالي تراجعت ضرورة إنتاج وحفظ الوثائق المكتوبة.

كذلك في الجزر البريطانية تعكس الحالة غلبة التقاليد الشفاهية في المجتمع حتى بعد بدأ التوثيق في الأجزاء المتطورة مثل لندن، حيث كانت وثائق التصرفات القانونية الخاصة إثباتية أكثر منها إنشائية مثلما كان الحال لدينا في المشرق.

بينما كانت الدولة الجديدة الناشئة في جنوب وشرق المتوسط، الدولة العربية الإسلامية هي التي جددت تقاليد حفظ الوثائق في عالم العصور الوسطى، فمن ناحية كان ظهور الإسلام وما ارتبط به دافعا للتحويل نحو الاهتمام بالتدوين بما في ذلك تدوين الوثائق، ومن ناحية أخرى ورثت الدولة الجديدة تقاليد إمبراطوريتين عريقتين في مجال النظم السياسية والإدارية وأساليب حفظ الوثائق، أعني الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية الساسانية؛ فقد شهدت هذه المنطقة تطورات في مجال تدوين الوثائق وحفظها في الفترة الممتدة من القرن السابع حتى القرن السادس عشر، أي منذ ظهور الإسلام وانتشاره حتى سقوط المنطقة في قبضة الأتراك العثمانيين.

وفي نهاية العصور الوسطى شهد العالم القديم تغيرات جوهرية أثرت على تطور الغرب والشرق وانعكست أيضًا على تدوين الوثائق وحفظها، وازدادت أهمية الوثائق كسندات للإثبات في النزاعات التي شهدتها أوروبا في ذلك الوقت، فظهر علم تحقيق الوثائق؛ ومع القرن التاسع عشر ظهرت الأرشيفات القومية كواحدة من المؤسسات الثقافية الحديثة لبناء الدولة القومية، الأمر الذي انعكس في صورة علوم جديدة تهتم بالوثائق من زاوية حفظها وإتاحتها.

¹ ديلماوس، برونو: أصل دراسة علم الأرشيف وتطوره، ترجمة محمد محمد خضر، في: (الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات، العدد الثامن، 1997، ص 197 . 212) المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1997، ص 195.

² حول السلطة والمعلومات؛ انظر: لستر وكويلر: المرجع السابق، ص 413 وما بعدها. ألفن توفلر: بناء حضارة جديدة، ترجمة: سعد زهران، ط1، مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر، القاهرة، 1996.

³ حول ابتكار الكتابة، انظر:

GELB (I. J.): A Study of Writing, The University of Chicago Press, Chicago – London, 1963, p.p. 1:23.

خالد عزب (محررا): وعاء المعرفة من الحجر إلى النشر الفوري، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2007، ص 4 – 14.

وحول الكتابات الأولى في بلاد الرافدين ووادي النيل، انظر: كريستان، آن ماري (محررة): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، ترجمة: مجموعة، تحرير الترجمة: خالد عزب، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2005، ص 41 – 63.

شعبان عبد العزيز خليفة: الكتابة العربية في رحلة النشوء والارتقاء، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 1989، ص 6 – 19.

GELB: Op. Cit., , 60:85

⁴ هناك عدة نظريات حول نشأة الكتابة، هل نشأت في مكان واحد وانتقلت منه إلى مختلف بقاع الأرض، أم نشأت في فترات متقاربة في أماكن متعددة نظرا لتشابه الظروف، وإذا كانت قد نشأت في موضع واحد فهل كان مصر أم العراق أم آسيا الصغرى؟

⁵ انظر: دراير، جونتر: بداية الكتابة في مصر القديمة، في: (رحلة الكتابة في مصر، تحرير: خالد عزب وأحمد منصور، ص 14 . 23) مركز الخطوط والكتابات والنقوش، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2010.

⁶ نفس المرجع، ص 15.

⁷ نفس المرجع، ص 14 و 15.

⁸ حول الكتابات السومرية القديمة، انظر: شعبان عبد العزيز خليفة: المرجع السابق، ص 6 – 19.

GELB: Op. Cit., , 60:85

⁹ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، منشورات دار الثقافة العلمية، الإسكندرية، 1998، ص 44.

¹⁰ انظر: محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 37 . 44.

¹¹ انظر: محمد أحمد حسين: الوثائق التاريخية، مطبعة جامعة القاهرة، 1954؛ محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 42 . 46؛ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 45، و 50 و 51.

¹² انظر: محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص 42.

¹³ انظر: جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 44؛ محمد قببسي: المرجع السابق، ص 31.

¹⁴ خالد داوود: الكتابة واللغة في مصر القديمة، في: (رحلة الكتابة في مصر، تحرير: خالد عزب وأحمد منصور، ص 24 . 47) مركز الخطوط والكتابات والنقوش، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، 2010، ص 35.

¹⁵ نفس المرجع، ص 37.

¹⁶ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 51.

¹⁷ انظر: محمد أحمد حسين: الوثائق التاريخية، مطبعة جامعة القاهرة، 1954؛ محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، 39؛ توفيق إسكندر: المرجع السابق، المحاضرة الثانية، ص 3.

¹⁸ انظر: جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 52.

¹⁹ أنظر: محمد أحمد حسين: المرجع السابق، ص 38؛ محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 47 . 53.

²⁰ انظر: محمد أحمد حسين: المرجع السابق، ص 50.

²¹ انظر: محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 54 و 55.

²² انظر: عادل الألوسي: البحث عن الوثائق . دراسة في وثائقنا القومية، ط 2، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2004، ص 72 . 75.

²³ انظر: محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 56؛ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 45.

24 انظر:

Bahnassi, Afif: Ebla Archaives, Talass publishing house, Damascus, 1989, pp. 7 – 1.

25 Bahnassi: Op. Cit. pp. 40-52.

26 جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 45.

27 أنظر: محمد أحمد حسين: المرجع السابق، ص 52؛ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 51.

28 بومجارد، دان: الأرشيف المتروبولي في القرن العشرين: فرز وإعدام الملفات، في: (روبرتس، م.ف. محررا: الأرشيفات والمدن الكبرى، ترجمة عثمان مصطفى عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص ص 347. 355)، ص 249.

29 محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 56.

30 لمزيد من التفاصيل، انظر: أحمد محمد حسين: المرجع السابق، ص 54 وما بعدها؛ محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 57 وما بعدها.

31 أنظر: فيرنوس، باسكال ويويوت، جان: موسوعة الفراعنة: الأسماء. الأماكن. الموضوعات، ترجمة: محمود ماهر طه، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1990، مواد: الحثيون والرعامسة.

32 جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 45؛ محمد قببسي: المرجع السابق، ص 33.

33 Shellenberg: Op. Cit., p. 3.

34 محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 67.

35 جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 50.

36 نفس المرجع السابق، ص 51.

37 توماس، روزالند: أرشيفات العالم القديم: الحفظ. الوثائق. وأرشيف اليونان الحجري، في: (روبرتس، م.ف. محررا: الأرشيفات والمدن الكبرى، ترجمة عثمان مصطفى عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص ص 23. 31.) ص ص 25. 26.

38 محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 71.

39 توماس، روزالند: المرجع السابق، ص 24 و 25.

40 محمد إبراهيم السيد: المرجع السابق، ص 67 و 68.

41 توماس، روزالند: المرجع السابق، ص 27.

42 نفس المرجع، ص 28.

43 نفس المرجع، ص 28 و 29.

44 انظر: محمد أحمد حسين: المرجع السابق، ص 70؛ جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 53.

45 توماس، روزالند: المرجع السابق، ص 23.

46 جمال الخولي: مدخل لدراسة الأرشيف، ص 53.

47 توماس، روزالند: المرجع السابق، ص 23.

48 نفس المرجع، ص 23 و 24.